الفصل الثالث

التراث الإسلامى والحياة الأسبانية

لقد حظيت صيغ معينة للحياة والتعبير بقدر من الاستطلاع أقل كثيراً عن الكلمات ذات الأصل الاشتقاقى العربى فى اللغات الرومانثية الأيبيرية. هذه الصيغ المعينة تبقى غير مفهومة بعيدا عن الإطار الإسلامى، وهنا لا يعنينى الفولكور بقدر ما تعنينى الحقائق التى تركتها ٩٠٠ سنة من النسيج المسيحى الإسلامى فى إيبيريا. وفيما يتعلق بهدف هذه الدراسة يبدو غير ذى أهمية ذلك الذى تركته الحضارة الشرقية فى بلاد أخرى احتكت بها مثل روسيا وبيزنطة والهند، ويحتل أيضًا نفس المنزلة تلك العادات التى قد يدين بها المسلمون الأسبان لشعوب مثل الفرس والبيزنط. ويبدو هذا القول واضحا إذا عرفنا أن العادات التى حفظها المسيحيون الأسبان هى انعكاس حى للجلال الإسلامى الذى كان يقهر ويخضع فى بعض الأحايين (على حد تعبير منندث بيدال) إلى درجة أنه يرغم على محاكاة له غير واعية، حتى بعد أن كان قد تلاشى الازدهار السياسى والعسكرى للمسلمين.

وإذا وجدت لدينا خريطة للحمامات فى أسبانيا الوسيطة لحصلنا على التفاصيل الكافية لمساحة التأثير الإسلامى. إن قرى صغيرة من قشتالة لا تعرف حمام الماء الساخن اليوم كانت تتمتع به فى ذلك العصر كما تخبرنا لوائح البلديات. وقد كانت الحمامات مباحة للجميع حيث كانت النساء نظيفات بعيدا عن الاستجمام فى المنابع الطبيعية أو الأنهار أو حتى فى المنازل، ولكن فى نهاية القرن السادس عشر تهدم كل الحمامات وينسى الأسبان ومثلهم الأوروبيون عادة الاستحمام لأنها عادة إسلامية، ويستمر ذلك حتى تدخل هذه العادة المؤثمة - من جديد - لإنجلترا فى زمن متأخر. كذلك حاكى المسيحيون المسلمين فى غسل الموتى. كما نرى تغطية وجه النساء عادة تنتشر بين النساء الأسبانيات، بينما تحرم على النساء الموريسكوس ورثة هذه العادة الحقيقيين. أيضًا كثير من عادات تأسيس البيوت

عربية الأصل ولا سيما مجالس المرأة فى هذه البيوت المكونة من سجادة مغطاة «بالحشيات». ومن الطريف أن تبقى المجاملات العربية التى لازالت حية الآن فى البلاد الإسلامية كقول «تفضل» يتفوه بها مجاملا صاحب الشيء إذا أعجب هذا الشيء شخصًا آخر وأبدى ما أحس من إعجاب. وكدعوة الحضور - دون قبول منهم بالطبع - إلى الطعام من الشخص الذى يتناوله أينما كان. وهذه العادة تنتشر بصيغ مختلفة فى كل أقاليم شبه الجزيرة. أيضا نرى ترديد عبارة «إن شاء الله» ترافق كل وعود الأسبان تماما مثل ترديدهم أقوال شبيهة بعبارة «إلى الغد». وهذه العبارات إسلامية بدليل عدم وجودها فى اللغات اللاتينية الأخرى بجانب صعوبة ترجمتها حرفيًا إلى هذه اللغات. وحتى ترديد كلمة الله فى أسبانيا يبدو مسرفا جدا إذا قارنا معجمين للغة الأسبانية والفرنسية. ويبدو أن كلمة: ! OLé لتشجيع المغنين و التعبير عن الطرب والإعجاب فى حلبات الرقص ومصارعة الثيران تأتى من استعمال مثيل لكلمة «الله» العربية.

يضم إلى كل ذلك التحيات فى الأسبانية وصيغ التعبير عن الاحترام، فهذه كلها - تقريبًا تضم كلمة الله. والمستعربون يستعملون كثيرا عبارات «الله يحفظك»، «الله يحميك» حتى أن اللغوى «منندث بيدال» يتصور - لكثرة شيوع هذه العبارات - أنها ظاهرة أعم من تأثير المستعربين الذين كانوا يرددونها فى القرن الثانى عشر، وأن بقايا هذه العادة ظلت حتى اليوم فى قول «يحفظه الله» عندما يذكر اسم الملك رسميًا. وفات اللغوى أنها كلمة يرددها - بجانب الاستعمال الرسمى لها - الفلاحون فى الأندلس كما يرددون A la paz de Dios كنظير حرفى مترجم للتحية الإسلامية «السلام عليكم».

ويبقى أيضًا كصيغة فى الرسائل عبارة «تقبيل اليد»[1] و«تقبيل القدم» فى التعامل مع السادة، وحتى القرن التاسع عشر كان يودع الفرسان بالقول «أقبل يد حضرتكم» كما كان يقف السيد أمام المرأة قائلا «أقبل قدمكم يا سيدتى» وماريانو خوسيه لارا كان يعرف العادة التقليدية لتقبيل الابن ليد أبيه «. . . ايه يا سيدى الوالد! لقد كان حينذاك (حيث تقبل يد

---

(١) تقبيل اليد: راجع (أبا هلال العسكرى، ديوان المعانى جـ ١، مكتبة القدسى، القاهرة، ١٣٥٢هـ) ص ٢١٤ - ٢١٥ حيث يورد أحاديث عن تقبيل يد الرسول ﷺ والصحابة كذلك يورد أبياتا من شعر المدح يجعل لليد باطنًا (للندى) وظاهرا (للتقبيل). ومما له مغزى منا ما ورد على لسان ابن قزمان الزجال الأندلسى العظيم فى مقدمة ديوانه فى إهدائه للديوان لأحد ممدوحيه «. . . الذى وجهه للنظر وكفه للتقبيل» (ديوان ابن قزمان - نشرة كورينطى - المعهد الاسبانو عربى ١٩٨٠ ص ٦).

الأب من الابن) لا ينادى على الأب بكلمة «بابا» إن تقبيل يد الأب ليس أثرًا قديمًا[1] » عموما نجد أن التراث له الدوام فى الأقاليم أكثر من مدريد. فحتى الآن يوجه الابن رسالة إلى أبيه «بعد تقبيل يدكم المبجلة». وإننا نجد الإشارة إلى تقبيل الأقدام فى رسالة إلى فيليب الثانى عام ١٥٦٦م معروضة فى الجمعية الأسبانية فى نيويورك. كما تظهر فكرة التقبيل بكثرة فى المسرح الأسبانى فى القرن السابع عشر، وفى دون كيخوته، وقبله فى قصيدة السيد، وفى كتابات «رايموندو لوليو». وليكن الأمر أن المسلمين قد أخذوا هذه العادة من البيزنط أو غيرهم إلا أنها عادة إسلامية أخذتها أسبانيا من المسلمين الأسبان وأن صيغة تقبيل المزارعين ليد السيد الإقطاعى ليست لها علاقة بالإقطاع الأوروبى، وإنما لها علاقة بالتاريخ الأسبانى، لأنه كان طبيعيًا بين العرب تقبيل اليد كدليل على الخضوع أو التشريف كما نرى فى هذا البيت الشعرى لابن دراج القسطلى (ت ١٠٣٠):

تخوفنى طوال السفار وإنه لتقبيل كف العامرى سفير

أما عادة تقبيل الخبز بعد التقاطه من الأرض فلا ندرى أهو أثر مسيحى فى الإسلام أم العكس إلا أن الاندلسيين الآن يلتقطون الخبز إذا سقط على الأرض قائلين «خبز الله» وهكذا كان يفعل المسلم الأسبانى قائلا: «عيش الله».

أما الذى ينتمى إلى الإسلام بوضوح فهو الدعاء للشحاذ عند الاعتذار عن التصدق عليه، بصيغ هى ترجمة حرفية لقول المسلمين «الله يعطيك.. الله يعينك.. الله يقويك.. الله يرضيك.. إلخ». ومن الصعب ألا ترجع - إلى الحياة الإسلامية المسيحية فى العصر الوسيط - تلك الصيغ الحماسية والمسرحية لطلب الصدقة كما يلاحظ فى أسبانيا - حتى الآن - ولا سيما فى الجنوب: «الله ينور بصرك... حن على الأعمى... إلخ»... أيضًا الإشارة إلى قداسة الأيام والمناسبات الدينية فى نداءات الشحاذين، ويبدو ذلك عند كيفيدو، ومن قبل قمص هيتا الذى يؤلف أغانى للشحاذين الذين كانوا يشكلون مؤسسة اجتماعية مهمة، نفس الشىء الذى يشير إلى نداءات للشحاذين قد سمعناها فى أسبانيا.

أما اللعنات والمدائح فلم تظهر بهذه الكثرة الساحقة والمقدرة التعبيرية فى أى لغة رومانثية أخرى كما ظهرت فى الأسبانية، ولا يسمع فى غير الأسبانية ما ردده الخليفة

---

(١) El casarse pronto y mal

العباسى المنصور منذ ١٢٠٠ سنة «سلمت الأم التى ولدتك!» إن هذه الظاهرة لابد أن تكون ذات أصل شرقى.

إن قائمة التأثيرات يمكن أن تتسع، ولعل من يعرف الحياة الإسلامية خيرا منى يمكنه أن يقدم هذا التوسع فى القائمة بسهولة. ولتحقيق هدفى يكفى إثارة الانتباه لمظهر جديد وخصب من مظاهر التاريخ الإيبيرى، وحتى لا تمضى الصورة التى أرسمها على وتيرة واحدة فإننى ألونها ببعض الإشارات إلى النفوذ الموريسكى خلال العصر الوسيط فى نهاياته، تلك الفترة التى كانت تصدح فيها البصمات الإسلامية فى الحياة وفى العادات، وتنبثق «الزينة المدجنة» فى العمارة الداخلية للقلاع وللحكايات الشعرية الشعبية الموريسكية على الحدود. هذه الأشعار الحلوة السائرة بين الناس، والتى تبدأ بمثل:

كنت أندلسية اسمها مريم...

أندلسية شابة ذات ذوق جميل

والشاعر فياساندينو (ت ١٤٢٧م) يتغنى بلذاذات الغراميات مع الموريسكيات اللائى يجذبن بعض المسيحيين القدماء فى القرن السابع عشر كما سبقت الإشارة. يقول فياساندينو:

من يغرم بالجميلة

فليغتفر طول الانتظار

عندما تكون تلك الجميلة أندلسية.

زهرة حلوة ناعمة!

رأيتها نابتة فى جنينة

مفتاحها السرى

من عرق إسماعيل

محمد الجسور

أمر أن تكون هكذا

نقية النبالة تماما،

نهود بيضاء من الكرستال

من رخام متلألئ . . .

له حق - كل الحق -

الثوب - إذ يضم زنديها -

فى امتلاك مثل تلك اللذة

كنت أهواها . . .

دأب نفسى الأمارة![1]

وفى ذلك القرن عندما يبدأ ظهور الشعر الغنائى الأسبانى تتفجر الأغانى المجهولة المؤلف ذات الموضوع الموريسكى، وليس ما يمنع الظن بأنها مؤلفة بيد الموريسكوس أنفسهم، الناسين للغتهم العربية حتى أن فقيه شقوبية Segovia الأكبر كان عليه أن يحرر القانون القرآنى بالقشتالية عام ١٤٦٢م. ويظهر بعض هذه الأغانى فى ثوب يبرز تحنانا حول كل ما هو حميم مما يفتح آفاقا لها نحو العالمية :

ثلاث بنيات أندلسيات عشقننى

فى جيان :

عائشة وفاطمة ومريم

كن فى طريقهن لقطف الزيتونات

فوجدوهن مقطوفات . . .

فى جيان :

. . . ووجدوهن مقطوفات

من ثم عدن قانطات

ضاعت الألوان

فى جيان . . .[2]

---

(١) Ver Poesia Espanola (Edad medica), edic Damaso Alonso. Buenos Aires, Editorial Losadia 1942, pages, 175 - 176.

(٢) راجع : بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة د. حسين مؤنس) ص ٦٢٧، ٦٢٨ حيث توجد ترجمة لرواية أخرى من هذا النص نفسه.

أو تلك الأغنية الأخرى التى مطلعها :

تلك الأندلسية الجميلة

هواها . . . هواها . . . هواها . . .

بث الضنى فى حياتى :

وقد تسللت وترشحت طرق الحياة الموريسكية فى الحياة الخاصة للأسبان ثم تعيش هذه الطرق قرونا فتصير أسبانية، وقد كتب عنها فى القرن الخامس عشر لأن الانتباه كان يتوتر نحو ما كان يحدث فى العالم المرئى المحسوس، وذلك فى تناسق مع الهجرة مما هو سماوى إلى ما هو أرضى، ولنقرأ يوميات البارون دى روثميتال : «فى برغش Burgos يعيش الآن «كونت» ذو جاه، أخذ سيدى إلى قصره (الذى يكتب يوميات البارون هو سكرتير للبارون) كما دعا عددٌ من الأصدقاء. وقد حضرت فتيات جميلات متزينات على الطريقة الموريسكية فى بهاء، وكن يرقصن رقصات بديعة بالأسلوب الموريسكى، وجميعهن كن سمراوات بعيون سوداء . . .» وإذا حدث هذا فى برغش - حيث لم يكن فيها مسلمون منذ القرن العاشر- فيمكن أن نتخيل كيف سيكون الأثر الموريسكى فى مناطق استعادها المسيحيون حديثا (أى بعد القرن العاشر) . لن أسرف فى الحديث لتشكيل صورة دقيقة للحياة الخاصة فى القرن الخامس عشر، ولكن كل هذا الذى فرغنا من ذكره يثبت أن العادات الإسلامية المسيحية لمن تكن «موضة» مؤقتة، إنما كانت شيئًا مفروضا على الحياة المسيحية كتخويل لبق من الغالبين للمغلوبين وهذا يفسر الذوق - فى الغرب الأمريكى الشمالى- ذلك الذوق الذى يتسم بالأسلوب العمرانى الأسبانى فى العمارة، وفى صيغ أخرى للحضارة. إن الكلام الذى يتلو سوف يعمق طرح هذه الأفكار التى التقطناها من اللغة.

التأثير الدينى للإسلام

لم يحظ الدين بمكانة فى حجم العمل الاجتماعى فى أى قطر كما حدث فى شبه الجزيرة الإيبيرية، وبين المتكلمين بلغتها. وهذا لا يعنى أن الكنيسة الآن مثلا - تمثل قيمًا فريدة فى نظر الناس أو أن الشبان لا يسعون لشئون الحياة المادية، وإنما يعنى أن الدين لازال هناك، بشكل ما، حتى أن أى محاولة لإسكاته تجر كوارث لا يمكن حسابها. وقد ثبت ذلك كعين اليقين بجداول الدم فى المكسيك وأسبانيا. كما أن شعوب أمريكا اللاتينية

لازالت تعيش فى جو سحرى. إن المنجزات الدينية، ودور رجال الدين فى كل مجالات الحياة الأسبانية لهى أمور لم يحدث لها نظير، والمثال على ذلك تلك الكنائس البالغة الجمال فى كل مكان والباقة المدهشة من الأدباء بين رجال الدين (سان خوان دى لاكروث[1] - سانتا تريزا - لويس دى ليون - فرانسيسكو دى فيتوريا - لوبى دى فيجا - كالديرون دى لاباركا - تيرسو دى مولينا[2] - جارسيان - فيجو Fojoò) وقد حملت سياسة أسبانيا الإمبراطورية فى أوربا وأمريكا إلى الواقع العملى - كدافع وهدف معا - ما كان الفن يبدع من واقع مثالى. إن كل تاريخ أسبانيا - فى جوهره - هو تاريخ عقيدة وحساسية دينية، وفى نفس الوقت هو تاريخ السؤدد والبؤس، وما وراؤهما من جنون.

لقد عاشت أسبانيا ديانتها مع ما ترتب على ذلك من نتائج، وقد عرفت فى كل لحظة ما تخاطر به من مصير فى مثل هذه اللعبة، لقد كان الأمر فى أعلى درجات الجدية كما لم نتعود أن نرى عند الرومان الذين حارب باباواتهم دفاعا عن مصالح دنيوية، دون تخريب لولاياتهم أو إخلائها من السكان، لقد كان الدين عند كثير من هؤلاء تجارة سياسية دنيوية وبيروقراطية ذكية بجانب كونه عقيدة فطنة تخلو من حرارة الإيمان. . إنهم أنسنوا الدين دون قطيعة مع السماء.

وقد بقيت الكنيسة الأسبانية دون أن تتعرض لأى اضطهاد - وقد حدث هذا لكثير من المؤسسات الدينية فى العالم، وينبغى أن يحدث - ولكن تبدو خصوصية الكنيسة الأسبانية فى استمرارها كقوة قائمة فى مواجهة الدولة حتى الآن الأمر الذى لم يحدث فى فرنسا وإيطاليا أو فى البلاد الكاثوليكية الكبرى، إن لأسبانيا حكومة فى إطار انتمائها للثقافة الغربية، بيد أن هذه الحكومة ظلت قوة معاونة بجانب الكنيسة حاملة ذكرى حكم أسبانيا ثيوقراطيا. وعندما حرمت الكنيسة من ممتلكاتها عام ١٨٣٦م استخدمت الأنظمة لحيازة

---

(١) سان خوان دى لاكروث: (١٥٤٢- ١٥٩١): مؤسس النظام الكرملى للرهبان، وهو شاعر غنائى بالغ الرقة وتلميذ حفيد لابن عربى المتصوف الأندلسى. وهو صديق حميم للمتصوفة الكرملية المصلحة للنظام الكرملى للراهبات وهى سانتا تيريزا دى خيسوس (١٥١٦ - ١٥٨٢)، وقد مارست الكتابة والشعر. وكان فراى لويس دى ليون (١٥٢٨ -١٦٠١) من المعاصرين لها المعجبين بها وهو أيضًا شاعر وكاتب، ورغم أنه أوغسطينى إلا أنه ممن كتبوا عن سنتانا تيريزا.

(٢) تيرسو دى مولينا: (١٥٨٤- ١٦٤٨) كاتب مسرحى تميزت كوميدياته بالعمق والسخرية المريرة، وهو قصاص تعد قصصه الجذور الأولى للرواية التاريخية عند والتر سكوت. وهو شاعر غنائى وكاتب لمسرح دينى. وأهم مصادر شهرته اختراعه لأسطورة دون جوان.

قوة اقتصادية ذات اعتبار كما مارست سلطة واسعة عن طريق مراكزها التعليمية. إن الشرح الخارجي لهذه الظاهرة غير مجد، ما دامت الجماهير لازالت تستوحي عقيدة ساكنة وغير متفاعلة دون النظر إلى وقائع موضوعية تحكمها الأحداث والمصالح الإنسانية. إن الرأسمالي الأسباني يفضل وضع أمواله في الحسابات الجارية أوفي سندات تضمنها الدولة دون أن يغامر باستثمارها في مشروعات صناعية فمعظم الاستثمارات الصناعية أجنبية، وفي عام ١٩٣٥ كان في أسبانيا ١٧ ألف فني أجنبي. إن عبارة «إن شاء الله» الإسلامية تتلون - حتى هذه اللحظة - في حشايا الأسبانية عبر استعمالاتها في كل خطوة.

وأمام اللامبالاة الهادئة التي تدعمها الكنيسة في الطبقات القادرة تقف العاطفة المسيحية عند جمهور الشعب، تلك العاطفة المؤسسة على عقيدة مقابلة وإن كانت ذات جذر مماثل. وإن الفوضوية - كعقيدة شعبية - بين عقائد أخرى - بجانب فوضوية الكنيسة ظلت هي الطابع الذي يسود أسبانيا. فالفرد الأسباني لا يعتقد أن مصير أسبانيا يتوقف على سلوك كل الأفراد، كذلك يقاتل هذا الفرد لتحقيق مثل عالمية. إن شعور الجماهير الفوضوي مقابل شعور الكنيسة تحت شعار أجنبي كان له القدرة التي صنعت مأساة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (الحرب الأهلية الأسبانية). إن الأسبان في القرن ١٥ ظنوا أن الملوك الكاثوليك قد جاءوا من أجل القضاء على الطغيان في العالم. وفي عصر النهضة كانت تكتب اليوتوبيا بالقلم بينما تتم كتابتها في أسبانيا بالدم من أجل تحقيق «نموذج مستحيل»، لقد ضاع من الأسبان البون بين الممكن والمستحيل. وقد يقال إن مثل ذلك قد حدث عند شعوب أخرى إلا أننا - في الغرب مثلا - لا نجد المحاولة المستحيلة، تقوم على أشواق وسحر، إنما تعتمد على تكامل: أشخاص ووقائع (اقتصاد - مفاهيم سياسية - تبادل علمي وصناعي) أما أسبانيا فإن الشخص ينطلق من الثقافة الجمعية، والتاريخ يدور في عملية متبادلة بين الأشواق والسحر المصورين في بوتقة الإيمان و الخداع - فيما يتعلق بزعماء الأمة، وفي الأدب الأسباني - حتى القرن ١٩ - ينظر إلى لذريق وجوليان كمذنبين لقيا جزاءهما لمسئوليتهما عن دخول الإسلام إلى الأندلس، وقد تحول هذا الجزاء - مع تراكم النظرة نفسها نحو الأحداث - إلى إجراءات تفتيش. وقد نسب فضل النهضة الأدبية في القرن ١٧ لكارلوس الثالث لمجرد أنه لم يعكر صفو مجموعة من الأرستقراطيين الذين كانوا يتكسبون من قضية الثقافة بالعطف عليها. واليوم مثل الأمس تملأ الروح المسيحية - أو المعادية لها - التاريخ

بصدى سحرى. وليس غريبا أن يترك الدين بصماته السحرية الفريدة فى أسبانيا، فهل يمكن أن نشاهد فى أى بلد كاثوليكى فخامة احتفالات الأسبوع المقدس فى أشبيلية الذى تتعدد الجماعات الدينية المشتركة فيه مع تخصص كل جماعة بجزئية من الموكب الفخيم كعنصر من عناصر الحرب النفسية العاطفية الموجهة ضد الجماعات المضادة. إن المعاناة المذهلة التى يقوم بها الأفراد فى أشبيلية لإنجاز إجراءات الاحتفال لايقابلها أى فهم لما تعنيه. إنها محاولة كل أسبانى لأن يضع يده على عالم الغيب «الخاص به» قافلا على نفسه باب اعتقاداته بأنه ينبغى أن يعيش على عطاء الأرض «الأم» التى يهبها هذا العالم الغيبى، عندما لا تكفيه الأرض يتجه لاستغلال جانب من ثرواته المعدنية دون النظر إلى خطورة ذلك، وربما يتجه إلى الدولة لنفس الغرض معتقدا فيها بالرغم من عدائه لها فى ظل تفكيره الدينى فى الحالتين. إن الأسبانى - ومغلقا على نفسه الباب - يعبر عن نفسه كممثل ومشاهد معا مهما تعدد أسلوب التعبير. إن عداء الأسبانى للدولة عداء نابع من تعاملها معه موضوعيًا، لأن الديانة الأسبانية فردية لا تقدم نموذجًا عاما للسلوك أما تضامنه مع الدولة حتى الموت فهو دفاع عن هذه الديانة التى تنبع من عالم خاص به، تسود فيه إرادته وحلمه وطموحه. إنه إذا شعر بأن العالم حوله يمضى بمعايير لا يستطيع تطويعها لإرادته فإنه يرتكب الجرائم، حتى لا ينبثق هذا العالم المعيارى إلى الوجود. إن الحرب الأهلية عام ٣٦-٣٩ كانت حربا بين التدين الأسبانى المنحدر عبر القرون، وبين ديانة ضبابية غامضة يترابط فيها القول الأسبانى السائد «يروق لى» مع مشروع طوبائى لتحقيق سعادة عالمية، و ما عدا هاتين الديانتين فقد كان حمى هامشية مستوردة من الخارج.

وإننى لأظن أن هذه الطريقة لمواجهة الحياة كانت قد حضنت ونمت فى معايشة للثقافة السحرية للإسلام المؤسسة على الخضوع إلى عقيدة تولد بدورها عقائد أخرى. فالإسلام الذى ينص على أن محمدا هو خاتم الأنبياء الموحى إليهم يقدم لنا منذ وفاته حتى اليوم «مهديًا منتظرًا» يشجع استمرار الطمأنينة الحيوية للمسلمين. وقد يضاف إلى كل ما سبق - من فكرة المعايشة فى خلق طريقة الحياة الأسبانية - ماتركه اليهود الأسبان والمرتدون المسلمون من أثر فى عملية تشكيل الأسبان وفى صيغ دقيقة للروح الدينية، ولنتأمل الأمر.

إن استخلاص ما هو إسلامى من إطار ما هو مسيحى أسبانى يعد أمرا صعبًا، لأننا لا نتعامل مع أشياء إنما مع أوضاع للحياة وطرق للمواجهة العاطفية لوجه عالم مقابل. إن الطرق الإسلامية فى إطار نفوذها فوق الطرق المسيحية قد وصلت إلى تشكيل عادات،

وبالتالى أسلوب للحياة . وهذا يعنى أن المظاهر الإسلامية فى الحياة منعكسة فى اللغة والعادات لا يمكن أن تمر دون أن تنعكس - دون اعتراف بذلك لإنكار القيم التى تنبع من حياة مناهضة - فى التدين المسيحى . إن الحياة الأندلسية الإسلامية فرضت نفسها على الجيران وناهضتهم، ومن هنا كان على هؤلاء أن يلتقطوا كلما غلبهم الإغراء وكلما كان ضروريًا ماديا وروحيًا : أى من الكحول إلى الكرامات . ومحاولة تتبع الآثار الإسلامية فى التدين الأسبانى أثرا بعد أثر لهو تباعد عن فهم التاريخ أو عن فهم هذا التدين فى ديناميكية وعند ظهور هذه الآثار عاملة فيه . إن العقيدة الإسلامية فرضت نفسها على المسيحيين الأسبان وناهضتهم، وحاكاها الأسبان، وهى تفرض نفسها عليهم، وناهضوها خلال المحاكاة بعقيدة مثلها تعتمد على قوة فوق - أرضية، جعلت حرب المسيحيين جهادا ضد جهاد المسلمين . إن المسيحية الأسبانية الدرامية النامية فى ظل هذا التصور ستغطى على المسيحية الأسبانية القوطية وتحل محلها منذ القرن التاسع حتى القرن السابع عشر، وتبدأ هذه العقيدة المحاكية للإسلام بمناهضته بنفس سلاحه بظهور سانتياجو (شانت ياقب) . يتضح ذلك فى الصفحات التالية .